(المجلس الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد..

فإنَّ كتاب [**تُحفة الأخيار**] كتابٌ نافعٌ جدًّا في بابه، ومؤلِّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ -الشيخ عبد العزيز بن باز- جَمَعَ فيه نُخبةً مباركة من الأدعية والأذكار المأثورة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا سيما منها ما كان مُقيَّدًا بأوقاتٍ معيَّنة؛ كأذكار الصباح والمساء، وأذكار الصلوات، وأذكار الطعام والشراب.... إلى غير ذلك من الأذكار المُقيَّدة.

ولهذا ينبغي أن يكون هناك تعاوُن على العناية بهذا الكتاب من عدة جهات:

أولًا: أن يحرص المسلم على حِفظ هذه الأدعية والأذكار حِفظًا صحيحًا، حِفظًا مُتقنًا بألفاظها المأثورة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يَحذَر من الخطأ؛ لأنَّ بعض الخطأ يُحِيل المعنى ويُغيِّره حتى في حركة الإعراب؛ ولهذا ينبغي أن يكون حِفظ العبد لهذه الأذكار حِفظًا صحيحًا.

الناحية الثانية: أن يعتني بكل ذِكرٍ من هذه الأذكار في وقته، وأن يأتي به على الدوام والاستمرار في كل يوم وكل ليلة، وتكون منه محافظة على هذه الأذكار في أوقاتها المأثورة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والأمر الثالث: أن يعتني مع ذلك كلِّه بفَهْم معاني هذه الأذكار، وتحقيق غاياتها ومقاصدها، ومعرفة مرامِيها، وكُل ذِكْرٍ له من الحِكَم البديعة والمقاصد العلِيَّة التي ينبغي أن يُعنَى بها المسلم.

وقد قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: "إنَّ أثر الذِّكر في العبد نَفْعًا ورِفعةً وعُلُوًّا بحسب عنايته بفَهْمِ هذه الأذكار"؛ لأنَّ مَن كان يتعامل مع هذه الأذكار على أنَّها ألفاظ مجردة تُقال في هذه الأوقات؛ فإنَّها في مثل هذه الحال تكون ضعيفة التأثير.

بينما إذا تأمَّل المسلم في معانِيها ودلالاتها، وحقَّق مقاصدها وغاياتها؛ فإنَّ أثرها حينئذٍ يكون كبيرًا، ونَفْعها يكون عظيمًا.

الناحية الرابعة: أن يكون هناك تعاوُن على مستوى البيت؛ بحيث إذا حافَظَ ولي الأمر ورب البيت على هذه الأذكار أن يحرص على تنشئة مَن تحته من الأولاد والبنين والبنات والأهل على العناية بهذه الأذكار؛ لأنَّها بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ستكون حِصنًا للبيت، وحِرزًا له، وحِفظًا من الشياطِين ومن الشرور ومن الآفات، وكثير من الأمور التي تقع للأبناء وللبنات سببها عدم التحصُّن بذِكْر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا ينبغِي أن يُعوَّد الناشئة ويُنشَّأ الأبناء والبنات على حِفظ هذه الأذكار، والمحافظة عليها، ويُتدرَّج معه في هذه الأذكار شيئًا فشيئًا:

في أول الأمر: يُعطَى ذِكرًا واحدًا من أذكار الصباح والمساء حتى يمضِي عليه فترة، ثم يُزاد، وهكذا في بقية الأذكار يُعوَّد ويُنشَّأ ويُدرَّب منذ صِغَرِه على المحافظة عليها.

ثم في الوقت نفسه يُحاول الأب أن يعتنِي بأبنائه من حيث فَهْم معاني هذه الأذكار ودلالاتها.

ولعلَّ في هذا الدرس ما يُعِينُنا جميعًا -إن شاء الله- على تحقيق شيءٍ من هذه المقاصد، وجانبٍ مهمٍّ في هذا الباب أَلَا وهو: العناية بفَهْم هذه الأذكار ومعانيها ودلالاتها ومقاصدها وحِكَمها، كل ذِكرٍ في بابه الذي جاء به في سُنَّة النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وأسأل الله جَلَّ وَعَلَا للجميع أن تُعمَرَ بيوتنا بذِكْر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن تكون بيوتًا ذاكرةً لله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد قال نبيُّنا -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- كما في الحديث الذي في صحيح البخاري: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**»، وجاء في روايةٍ أخرى للحديث: «**مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ اللهُ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لا يُذْكَرُ فِيهِ اللهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالْمَيِّتِ**»؛ فشبَّه الذَّاكر بالحي، وعدم الذَّاكر للميت، وشبَّه البيوت التي يُذْكَر فيها الله جَلَّ وَعَلَا ببيوت الأحياء، والبيوت التي لا يُذْكَر فيها الله جَلَّ وَعَلَا ببيوت الأموات.

ولهذا ينبغي أن يكون هناك تعاوُن في البيوت على أن تُعمَر بذِكْر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويُنشَّأ الصِّغار ويُنشَّأ البنات ويُنشَّأ أهل البيت على العناية بذِكْر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ولا سيما -أيها الإخوة- وخاصةً أذكار الصباح والمساء؛ فإنَّ هذه -كما سيأتِي معنا- أكثر الأذكار وأوسعها ورودًا في السُّنَّة، وحثًّا عليها أيضًا في القرآن الكريم، وسيأتِي معنا آيات كثيرة اختُصَّت بها أذكار الصباح والمساء بما لم يأتِ في غيرها من الحثِّ عليها، والترغِيب فيها، وبيان الآثار المباركة على العناية بها.

ولهذا كان متأكِّدًا علينا جميعًا أن نُعنَى بالأذكار عمومًا، وبأذكار الصباح والمساء على وجه الخصوص، وكذلك أذكار أدبار الصلوات، والأذكار التي تُقال عند النوم؛ فكلُّ ذلك مِمَّا يجدُر بالمسلم في خاصة نفسه وفِيمن يعُول أن يعتني بها عنايةً كبيرة لتكون له حِصنًا حصينًا وحِرْزًا متينًا من الشيطان الرجيم.

وقد جاء في حديثٍ عن نبيِّنا -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- ذَكَرَ فيه وصيَّة يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، وأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَمَره أن يُوصِيَ قومه بخمسة أمور، وأنَّه أوصَى قومه بها كما أمره الله، وهي:

- الوصية بالتوحيد.
- والوصية بالصلاة.
- والوصية بالصيام.
- والوصية بالذِّكْر.

ثم قال في الوصية الخامسة: "وآمُرُكم بذِكْر الله؛ فإنَّ مَثَلَ الذي يَذْكُر الله تعالى كمثل رجلٍ خَرَجَ وانطلق العدو وراءه سِراعًا، حتى إذا آوى إلى حِصْنٍ حصِين فلم يستطع العدو أن ينال منه أو يصل إليه". هذا مثل للمعتني بذِكْر الله، كأنَّه دَخَلَ في حِصْنٍ حصِينٍ وحِرْزٍ متين يحميه ويحُوطه بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من شرِّ الشيطان.

وفي هذا المعنى سيمُرُّ معنا أحادِيث كثيرة في سُنَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها الدلالة على مسألة الحِفظ والوقاية والحِماية لمَن اعتنى بالأذكار المأثورة عن النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم -كما عرفنا- الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب بدأ بمقدِّمة ذَكَرَ فيها جملةً من النصوص -نصوص القرآن الكريم-، ثم جملةً من نصوص السُّنَّة النبوية في فضيلة الذِّكْر، والحثِّ عليه، والترغِيب فيه، وبيان فَضْله، ونوَّع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأدلة من هذا القبِيل بدأها أو جعلها مقدِّمةً لهذا الكُتيِّب المبارك؛ لتكون حافزًا ومشجِّعًا لمَن يقرأ هذا الكتاب على العناية بهذه الأذكار والاهتمام بها.

وقد أخذنا من هذه الآيات آيتَيْن، ونواصل الآن القراءة فِيما كَتَبَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجَمَعه.

المتن:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

قال المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٥]، إلى أن قال سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٥].

الشرح:

ثم أورَدَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان فَضْل الذِّكْر، وعِظَم ثوابه عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذه الآية من سورة الأحزاب، وفيها ما أعدَّه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للذَّاكرين الله كثيرًا والذاكرات من المغفرة والأجر العظيم، وهذه فضيلة من فضائل الذِّكْر، وثمرةٍ عظيمةٍ من ثماره أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أعدَّ للذَّاكرين الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا والذاكرات مغفرةً وأجرًا عظيمًا.

وهنا ينبغي أن نلاحظ في هذه الآية ما لاحظناه أيضًا في الآية الأُولى: أنَّ الأمر أو ذِكْرَ أو الحثَّ على ذِكْر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو حثٌّ على الذِّكْر بالكثرة ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وقد مرَّ معنا ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤١]، وسيأتي آيات: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الجمعة، من الآية:١٠]، وآيات أخرى كثيرة فيها الأمر بذِكْر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالكثرة.

ولهذا في بعض كتب الأذكار عَقَدَ بعض العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مسألةً مفيدة في هذا الباب: متى يكون العبد من الذَّاكرين الله كثيرًا؟

لأنَّنا نجد في نصوص كثيرة في القرآن، وكذلك أيضًا في السُّنَّة أحاديث عديدة، مثل الحديث المشهور الذي قال فيه لمَّا مرُّوا على جبل يُقال له: «**جُمدان**»، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**هَذَا جُمْدَانُ**»، ثم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدون**»، فقال الصحابة: ومَن المُفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**»؛ فمَدَحَهم وأثنى عليهم بالسَّبْق بأنَّهم السبَّاقُون للخيرات، الحائزون أعلى المقامات ورفيع الدرجات، مَن هم؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**».

فالعلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ عَقَدوا مسألة في بعض كُتُب الأذكار: متى يكون العبد من الذَّاكِرين الله كثيرًا؟ ما الذي يُواظب عليه العبد من ذِكْر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيكون به من الذَّاكِرين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كثيرًا والذَّاكرات؟

فهذه -حقيقة- مسألة مهمة ينبغِي أن تكون مِنَّا على بال ونحن نقرأ أمثال هذه الآيات، وأمثال هذه النصوص التي فيها حثٌّ على ذِكْر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالكثرة.

هنا -أيها الإخوة- أنقُلُ لكم عِدَّة نقول مفيدة ونافعة جدًّا من كلام أهل العلم في بيان متى أو بِمَ يكون العبد من الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات؟

وأبدؤها أولًا: بما جاء عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: جاء عنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قال في معنى الآية، قال: "يذكرون الله في أدبار الصلوات، وغُدوًّا وعشيًّا -يعني: أذكار الصباح والمساء يُحافظون عليها-، وفي المضاجع -أذكار النوم- ، وكلَّما استيقَظَ من نومه -أيضًا أذكار الانتباه من النوم-، وكلَّما غدا أو راح من منزله ذَكَرَ الله"؛ هذا كلام ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في معنى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ مَن هم؟

قال: "المراد: يَذكرون الله في أدبار الصلوات، وغُدُوًّا وعشيًّا، وفي المضاجع، وكلَّما استيقَظ من نومه، وكلَّما غدا أو راح من منزله ذَكَرَ الله تعالى".

لاحظوا هنا في كلام ابن عباس ولو لم يأتنا في هذا الباب إلَّا هذه الكلمة لَكَفَتْ، لاحظوا هنا في كلام ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ العبد يكون من الذاكرين الله عندما يعتني بهذه الأذكار الموظَّفة الراتبة:

- أذكار الصباح، أذكار المساء.
- أذكار النوم، أذكار الانتباه.
- أذكار الصلوات، وأدبار الصلوات.
- وأذكار الغُدُوِّ والرواح، وما يتعلَّق بغُدوِّ الإنسان، خروجه من منزله ماذا يقول؟
- إذا رَكِبَ دابَّته ماذا يقول؟
- إذا دَخَلَ المسجد ماذا يقول؟ إذا خَرَجَ منه ماذا يقول؟
- إذا دَخَلَ بيته ماذا يقول؟
- إذا تناول الطعام.

إلى غير ذلك يعوِّد نفسه على هذه الأذكار، يعتني بها؛ فإنَّه بهذه العناية وهذه المواظبة يُكتَب بإذن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من الذَّاكرين الله كثيرًا.

أيضًا يقول مجاهد رَحِمَهُٱللَّهُ وهو من التابعِين، يقول: "لا يكون من الذَّاكِرين الله كثيرًا والذاكرات حتى يذْكُر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا"؛ أي: أنَّه يذكُر الله على كل أحواله: في قيامه يذكُر الله، وفي قعوده يذكُر الله، وفي أيضًا اضطجاعه يذكُر الله.

ولاحظوا كلمة مجاهد هُنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي قريبة من كلمة ابن عباس؛ لأنَّ أحوالك؛ إمَّا قائم، وإمَّا قاعد، وإمَّا مضطجع. ولك في كل حالٍ من هذه الأحوال مقامات تذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيها، فيُشير مُجاهد إلى العناية بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كل أحوال المسلم سواءً كان في قيام، أو كان في قعود، أو كان في اضطجاع؛ فإنه في كل أحواله يذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

أيضًا يقول عطاء: "من صلَّى الصلوات الخمس بحقوقها، فهو داخلٌ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٥]"، من صلَّى الصلوات الخمس بحقوقها؛ لأنه ليس كل صلاة تحقق المقصود ويُنال بها المُراد، إلَّا إذا كانت صلاةً عُمرت بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، صلاةً أُقيمت على ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وسيأتي معنا أن أحوال الناس في العبادة بما فيها الصلاة بحسب حظِّهم فيها من ذكر الله، وأعظم الناس أجرًا في صلاتهم أكثرهم ذكرًا لله فيها، أعظم الناس أجرًا في صيامهم أكثرهم ذكرًا لله فيه، أعظم الناس أجرًا في حجهم أكثرهم ذكرًا لله فيه.

وقد جاء في هذا حديثٌ ثابت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثٌ حسن بشواهده، أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سُئل: أيُّ المصلين أعظم أجرًا؟ قال: «**أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا**»، قيل: أيُّ الحجاج أكثر أجرًا؟ قال: «**أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا**»، قيل: أيُّ الصوام أكثر أجرًا؟ قال: «**أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا**»، فلا يُسأل عن طاعة أيُّ الناس فيها أعظم أجرًا إلَّا ويقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَعْظَمُهُمْ للهِ ذِكْرًا**»؛ أي: في تلك الطاعة.

ولهذا فإن العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه [**الوابل الصيِّب**] وهو كتاب نافع جدًا في باب الأذكار والدعوات، وأيضًا بدأه بمقدمة ماتعة ونافعة في فوائد الذكر، وقال في بدايتها: "للذكر أكثر من مائة فائدة"، وذكر في كتابه نفسه ما يزيد على السبعين فائدة من فوائد الذكر، وآثاره على العبد في دنياه وأخراه.

فابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ماذا كنت أريد أن أقول في كتاب ابن القيم؟! ... لا لا، قبل ذلك ... نعم، ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد هذا الحديث: أعظم الناس أجرًا، لما سُئل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: أي المصلين أعظم أجرًا؟.. إلى آخر الحديث، أورد هذا الحديث في كتابه [**الوابل الصيِّب**] وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أو استنتج منه قاعدة مفيدة جداً ستجدونها في كتاب [**الوابل الصيِّب**]-، أورد قاعدةً مُفيدة استخرجها من الحديث ألا وهي: "أن أعظم الناس

أجرًا في كل طاعة أكثرهم لله ذكرًا فيها؛ في الحج، في الصيام، في الصدقة، في الجِهاد، في كل طاعة، أعظم الناس أجرًا في كل طاعة هم أكثرهم لله ذكرًا في تلك الطاعة".

أيضًا مما ورد في النصوص في بيان: بِمَ يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، ما جاء في سُنن أبي داود وابن ماجه والحاكم وغيرهم بإسنادٍ صحيح من حديث أبي سعيدٍ الخُدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا أَوْ صَلَّى رَكعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَ مِنَ الذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**».

أيضًا ما جاء عن العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: ما جاء عن أبي عمرو بن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما نقله عنه النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الأذكار، حيث سُئل أبو عمرو بن الصلاح سُئل عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، فقال: "إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحًا ومساءً في الأوقات والأحوال المختلفة ليلًا ونهارًا، وهي مُبينةً في كتاب [**عمل اليوم والليلة**] كان من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات".

أيضًا العلامة ابن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه [**التفسير**]، له كلمة جميلة جدًا عند قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأقل ذلك -يعني ما يكون به العبد من الذاكرين الله كثيرًا- قال: وأقل ذلك أن يُلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فإن ذلك -يعني هذه المواظبة وهذه العناية بالذكر- فإن ذلك عبادةً يسبق بها العامل وهو مُستريح"؛ لأن الذكر من أخف الأعمال، وأيسرها، أليس قد قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ على اللِّسَانِ، ثَقِيلَتانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، سُبْحانَ اللهِ العَظِيمِ**»، عمل اللسان لا يكلفك جُهدًا، ولا يُكلفك مشقةً؛ لكن عوائده وثماره وآثاره عليك في الدنيا والآخرة لا حدَّ لها ولا عد.

ولهذا يقول ابن السعدي هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مُستريح"؛ انظر شاهد كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحديث الذي مرَّ قريبًا، قال: «**سَبِقَ المُفَرِّدُونَ**»، قالوا: ومن المفردون؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات**».

قال: وداعٍ -يعني الذكر- إلى محبة الله ومعرفته، وعونٍ على الخير، وكفِّ اللسان عن الكلام القبيح".

فعلى كل حال.. هذه جُملة من النقول، وجملة من الفوائد في هذه المسألة العظيمة التي هي بما يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

وأنا أُريحكم في هذا الباب، فأقول -أيها الإخوة-: هذا الكتاب الذي بين أيدينا **[تُحفة الأخيار]** جمع فيه الشيخ ابن باز -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- نُخبة طيبة و جملة مباركة من أذكار الصباح، وأذكار المساء، وأذكار النوم، وأذكار الصلوات، والأذكار العارضة في الأحوال، جمع فيها نُخبةً طيبة ونُخبةً مباركة؛ فأنا أحسب أن هذا الكتاب الحفظ عليه، والمحافظة عليه، وحفظه، والمواظبة عليه؛ أحسب أن ذلك بإذن الله يكون به العبد من هؤلاء الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

على ألَّا يكون ذلك حَدًّا يقف عنده العبد، ولكنه أساسًا يَبني عليه حياته في ذكر الله، فهذه النُخبة الطيبة والجمع المبارك الذي جُمع في هذا الكتاب يكون أساسًا لنا جميعًا نبني عليه، ثم بعد ذلك هِمَّة الإنسان ونهمه ورغبته في المزيد تجعله يُطالع أيضًا كتب العلماء الأخرى؛ لينتقي منها ويختار منها الصحيح الثابت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الباب؛ لأن الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ لم يلتزم في كتابه هذا أن يجمع كل صحيحٍ ورد في الأذكار، وإنما أراد أن يجمع في الباب نُخبةً طيبة وقدرًا مباركًا يحسن ويجمل بكل مسلم أن يعتني به وأن يواظب عليه.

المتن:

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [سورة آل عمران، من الآية: ١٩٠-١٩١].

الشرح:

ثم أورد -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- هذه الآية في بيان فضيلة الذكر، والآية تدل على فضيلة الذكر من جهة أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل ذكره قيامًا وقعودًا وعلى الجنوب وصفًا لأولي الألباب الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض؛ فهذه فضيلة من فضائل الذكر بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أثنى على الذاكرين الله جَلَّوَعَلَا قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم بأنهم هم أولوا الألباب؛ يعني أصحاب العقول الرصينة، أصحاب العقول الرزينة، أصحاب العقول الحصيفة، من كانوا بهذه الصفة يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم.

وأيضًا الآية فيها دلالة على أن ذكر الله جَلَّ وَعَلَا والعناية به والمواظبة عليه أكبر عونٍ للعبد على زوال الغفلة عنه، وعلى تحقيق التفكُّر في خلق الله للسموات والأرض، فالذكر إذا وُجد زالت الغفلة، وإذا زالت الغفلة حصل للعبد التذكر والتبصُّر في آيات الله، وفي مخلوقات الله، بخلاف أكثر الناس الذين يمرون على آيات الله العِظام الباهرة وهم معرضون، لا تؤثر فيهم ولا تُحرك فيهم ساكنًا، ولا كأنها تعنيهم بشيء.

وهذا كله بسبب تراكم الغفلة، فإذا كان العبد من الذاكرين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإن ذكره لله يفتح له باب التفكر في مخلوقات الله العظيمة، مما يكون سببًا في زيادة إيمانه، وقوة يقينه، وحُسن صلته بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ثم تأمَّل ما في الآية في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾؛ وقد مرَّ معنا كلام مُجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

قال: "الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وحال الاضطجاع -أي على جنوبهم-"، فلا يبلغ العبد هذه الرتبة أن يكون من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات إلَّا إذا كان ذاكرًا لله على كل أحواله: في قيامه يذكر الله، وفي قعوده يذكر الله، وإذا اضطجع على جنبه يذكر الله؛ فهو في كل أحواله يكون ذاكرًا لله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المتن:

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الأنفال، من الآية:٤٥].

الشرح:

هذه الآية فيها ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في حال الجِهاد وملاقاة الأعداء، وهذا أيضًا فيه دلالة على أن ذكر الله جَلَّ وَعَلَا من أسباب النصر، ومن أسباب القوة، بل قال العلماء: إن ذكر الله جَلَّ وَعَلَا يُعطي الذاكر قوةً بدنية، ليس فقط قوةً روحية، بل يُعطي الذاكر قوةً بدنية، بمعنى أنه يحصل له قوةً بدنية مثل ما تحصل له هذه القوة بتناوله الطعام المُفيد النافع.

واستدل العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على ذلك بنصوصٍ منها: قصة فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا لما طلبت من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يُعطيها خادم، فقال لها عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَلَا أَدُلُّكِ عَلَى مَا هُوَ خُيْرٌ لَكِ مِنْ خَادِمٍ؟**»، قالت: بلى يا رسول الله، قال: «**تَقُولِينَ عِنْدَمَا تَأْوِينَ إِلَى الفَرَاشِ عِنْدَ النَّوْمِ: سُبْحَانَ اللهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، الْحَمْدُ للهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، اللهُ أَكْبَرُ**

أَرۡبَعًا وَثَلَاثِينَ»، فالنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أخبر فاطمة أن هذا خيرًا لها من خادم، وهي طلبت خادمًا وهذا خيرٌ لها من خادم، فالعلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ استنبطوا من ذلك: أن الذكر يُعطي الذاكر قوةً في بدنه.

ولهذا يقول ابن القيم في بعض كتبه: كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ إذا صلَّى الصبح بقي في مُصلاه إلى الضحى يذكر الله تعالى، فقلت له مرة: يعني هل تستمر على هذه الحال أو نحو هذا الكلام؟

فقال رَحِمَهُٱللَّهُ: "لو لم أفعل ذلك لخارت قواي"، يعني يضعف بدني، فذكر الله جَلَّوَعَلَا يُعطي الذاكر قوة، ولهذا جاء الأمر بذكر الله بالكثرة حال ملاقاة الأعداء، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

وقد قال العلماء: كل (لعل) في القرآن فهي واجبة، يعني أنكم ستفلحون بذلك، ستنالون الفلاح، ومن دلائل الآية: أن ذكر الله والمواظبة عليه والإكثار منه من أسباب فلاح العبد في دنياه وأُخراه.

إذًا الآية فيها من فوائد الذكر أن الذكر يُعطي قوةً للذاكر، ولا سيما في ملاقاة الأعداء ومجابهة الأعداء، يُعطي قوةً لبدنه، ومن فوائد الذكر أنه سببٌ للفلاح، والفوز في الدنيا والآخرة. قال: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

المتن:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [سورة البقرة، من الآية: ٢٠٠].

الشرح:

قال: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾؛ أي مناسك الحج. ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾؛ وهذا فيه الأمر بذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بالكثرة، وهُنا نُلاحظ في هذه الآية والآية التي قبلها والآية الآتية قريبًا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [سورة الجمعة، من الآية:١٠]؛ فإنَّا نجد في هذه الآيات الأمر بالإكثار من ذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في خواتيم الطاعات والعبادات. وهذا فيه دلالة أن ذكر الله جَلَّوَعَلَا كما أنه روح العبادة ومقصودها روح الصلاة الذكر، روح الحج الذكر، روح الجهاد الذكر، روح كل عبادةٍ ذكر الله، فكذلك ينبغي أن تُتوَّج وتُختم بذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

ولهذا نجد أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر في خاتمة الحج بالإكثار من ذكر الله، وأمر في خاتمة الصلاة بالإكثار من ذكر الله، وأمر بخاتمة الصيام أيضًا بالإكثار من ذكر الله، ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٨٥]؛ فنجد أن ذكر الله جَلَّوَعَلَا يأتي في كثيرٍ من النصوص في خاتمة العبادة لتُتوَّج العبادة وتُختم بالإكثار من ذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وهذا إضافةً إلى ما فيه من فائدةٍ ونفعٍ للمسلم؛ فإن فيه إشارة إلى أن العبد لم يمل من ذكر الله، فلهذا كلما ختم طاعةً من الطاعات يلهج بذكر الله بالكثرة، مما يدل على شدة الرغبة، وشدة الحرص، وقوة العزيمة في العناية بذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

فهو يذكر الله في الطاعات الكبار المأمور بها -فرائض الإسلام-، ثم أيضًا يختمها بالإكثار من ذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ليكون ذلك حافظًا له وحافزًا له على لين العبادات وسهولتها ويسرها عليه مما يستقبله من طاعات آتية وعبادات قادمة.

إذا انتهى من الصلاة وأكثر من ذكر الله في خاتمتها؛ فإن إكثاره من ذكر الله في خاتمتها سيكون بإذن الله عونًا له في الطاعات القادمة، وخذوا هذه الفائدة من قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمعاذ بن جبل: «**يَا مُعَاذ إِنِّي أُحِبُّكَ، فَلا تَدَعَنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ**».

المتن:

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [سورة المنافقون، من الآية:٩].

الشرح:

هذه الآية في أيِّ سورةٍ وردت؟ في سورة المنافقون، هُنا لفتة جميلة ذكرها بعض العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ، في سورة المنافقون، الله جَلَّوَعَلَا ماذا قال عن المنافقين في مسألة الذكر؟ قال: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:١٤٢]؛ هذا شأن المنافقين ذكرهم لله قليل، لا تتحرك ألسنتهم بذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إلا قليلًا وشيئًا يسيرًا؛ فهذا المرض الذي في قلوبهم الذي هو مرض النفاق -والعياذ بالله- جعل ألسنتهم ما تستطيع أن تتحرك بذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إلا بقدرٍ يسير.

ولهذا العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أخذًا من هذه الآية التي فيها وصف المنافقين بقلة الذكر، أخذوا من ذلك فائدة: أن كثرة الذكر بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ براءة من النفاق.

وعلي بن أبي طالب لما سُئل عن الخوارج قيل: أمنافقون هُم؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلًا، قيل: أمنافقون هم؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلًا، إذًا من كان يذكر الله كثيرًا ويعتني بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالكثرة؛ فإن هذا بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ براءةٌ له من النفاق.

وهُنا قال العلماء: إن سورة المنافقون التي أُفردت لذكر المنافقين وأوصافهم وعلاماتهم ختمت -أو جاء في خواتيمها- قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [سورة المنافقون، من الآية:٩]؛ إذا تساءلت هُنا: ما السر في ذكر هذا الحث على الإكثار من ذكر الله في سورة المُنافقون؟ وألَّا يُلهيك الأهل والأولاد والتجارة.. إلى آخره عن ذكر الله في هذه السورة التي هي سورةٌ أُفردت لذكر أوصاف المنافقين.

فإنك تجد الجواب مما ألمح إليه وأشار إليه بعض أهل العلم: أن هذه الآية ذُكرت في سورة المنافقون تنبيهًا وإشارةً إلى أن الإكثار من ذكر الله وعدم انشغال الإنسان عن ذكر الله بالأهل أو الأولاد أو التجارة أو غير ذلك؛ أن هذا من أسباب البراءة والسلامة من النفاق.

وهذه فائدة عزيزة ونفيسة جدًا نبَّه عليها أهل العلم في ذكر هذه الآية المُباركة في سورة المُنافقون.

المتن:

وقال تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [سورة النور، من الآية:٣٧].

الشرح:

قبلها قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ﴾ [سورة النور، من الآية:٣٦-٣٧]، أنا أريد حقيقة أن نقف هُنا عند رجال، من الذي يقولها؟ رب العالمين يقول: ﴿رِجَالٞ﴾؛ المراجل هذه لها أحاديث متفرقة عند الناس، ولو تسأل فئات الناس عن المراجل ما هي؟ وما هي أوصاف الرجل وما هي الرجولة؟ تجد تباين في الطرح، وتباين في الأفكار، وتباين في الآراء، بعضهم يظن أن

الرجولة أن يفتل شاربه، و يكون الشارب طويل جدًا ويبدأ يفتله أمام الناس بقوة، ويُحس أنه كامل الرجولة بهذه الطريقة مع أنه مخالف للفطرة، وهو في قرارة نفسه أنه حقق بفتله لشاربه الرجولة بكل معانيها.

ولهذا ينتفخ أمام الناس ويبدأ يفتل شاربه بطريقة يعني زهو وكِبر وتعالي إلى أعلى يفتل الشارب، ويرى أنه حقق الرجولة! بعض الناس هذه معنى الرجولة عنده.

وآخرون يُمارسون معاصي ومحرمات وهو في قرارة نفسه وفي كامن قلبه أنه بهذه الممارسة يُحقق الرجولة، بعضهم يُمارس عدوان وإجرام وبطش وأذى للناس وهو في قرارة نفسه أن هذه معالم الرجولة.

فالناس يتفاوتون في معاني الرجولة، لكن انظر ماذا يقول رب العالمين: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ﴾؛ فهذه حقيقة الرجولة كما وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أهلها بذلك، حقيقة الرجولة ذكر الله، حقيقة الرجولة الصلاة، حقيقة الرجولة طاعة الله، حقيقة الرجولة البُعد عن معصية الله، حقيقة الرجولة المواظبة على عبادة الله؛ هذه الرجولة في حقيقتها، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ فالرجولة في أبهى حللها، وأتم معانيها وأكمل صورها هي هذه كما أخبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وكم غفل الناس عن معاني الرجولة في حقيقتها، وفي حقيقة معناها، الرجولة في طاعة الله، ولهذا من خرج عن طاعة الله خرج عن حقيقة الرجولة، وخرج عن حقيقة المراجل، المراجل في أتم معانيها أن يكون العبد معتنيًا بطاعة الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾.

الشاهد من الآية: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي أن تجارة الإنسان، بيع الإنسان، أعمال الإنسان، وظائف الإنسان؛ كل هذه لا تُلهيه عن ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بل هو ذاكرٌ لله في سوقه، ذاكرٌ لله في بيته، ذاكرٌ لله في وظيفته، ذاكرٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كل أحايينه وأحواله؛ فهو على هذه الصفة وعلى هذه الحال.

المتن:

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٢٠٥].

الشرح:

ثم ذكر هذه الآية، وقد اجتمع في الآية أمران:

الأمر الأول: صُدِّرت الآية بالأمر بالذكر، وخُتمت الآية بالنهي عن ضدِّه وهو الغفلة.

خُتمت بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾؛ فلاحظ ما صُدِّرت به وما خُتمت به! وتأمل ما الذي يزول عن العبد به وصفه بالغفلة، الآية خُتمت بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، فالغفلة تكون بزوال الذكر، إذا لم يكن العبد ذاكرًا فهو غافل، إما ذاكر وإما غافل، لا يخرج من هاتين، فما هو الذكر الذي تزول به الغفلة؟

تأمل الآية ثانيًا! قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾؛ هذه المعاني تزول بها الغفلة، هذه المعاني التي هي أوصاف لذكر المسلم لربه بها تزول غفلته.

قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾؛ هُنا فيه الأمر بأن يكون الذكر في النفس، والمراد: بينك وبين نفسك، ليس المراد بالذكر هنا في النفس؛ أي في الصدر دون تحريك اللسان، ليس هذا المراد، وإنما المراد بالذكر في النفس: أن يكون بينك وبين نفسك، فتكون جامعًا في ذلك بين تحريك اللسان بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مع أيضًا حضور القلب؛ فتكون ذاكرًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بلسانك، وأيضًا بقلبك. ليس على وجه الجهر وإسماع الناس، وإنما بينك وبين نفسك تذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾؛ وهذا فيه الإلحاح والمداومة والاستمرار والمواظبة على ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَخِيفَةً﴾؛ أي: تكون في ذكرك لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خائفًا، جامعًا بين العناية بالذكر والخوف، مثل ما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "المؤمن جمع بين الإحسان والمخافة، والمنافق جمع بين الإساءة والأمن"، فلاحظ هُنا إحسانه مخافة، ذكرٌ لله تضرع مع الخوف، خائف من الله جَلَّ وَعَلَا، يقول ابن أبي مُليكة: "أدركت أكثر من ثلاثين صحابيًا كلهم يخاف النفاق على نفسه"، وهم من أكثر الناس ذكرًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

هذا بخلاف بعض الناس يُحرِّك لسانه بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأيامٍ معدودة أو لساعاتٍ معدودة ثم يرى أنه أفضل الناس ذكرًا لله، وأنه لا أحسن منه ذكرًا لله، وأنه أفضل الناس إتيانًا بهذه العبادة، ويبدأ يتعالى، هذه حالة سيئة -والعياذ بالله-.

بخلاف حال أهل الإيمان الذين هم أهل إكثارًا من الذكر والعناية بالعبادة، ثم يرى نفسه ماذا؟ مُفرطًا، مقصرًا، لا يزال عنده تقصير، هذه حال الصحابة وحال أتباعهم بإحسان، ومما يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٦٠]؛ معنى: ﴿يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾؛ أي يقدمون ما يُقدمون من أذكار، وطاعات، وصلوات، وصيام، وحج ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾؛ أي خائفة، خائفة من ماذا؟ من ألا يُقبل منهم ما قدموه، وما تقربوا به إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولهذا قال هُنا: ﴿وَخِيفَةً﴾.

﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ وهذا يوضح لنا أن المراد بقوله: ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾؛ ليس المراد في السر دون تحريك اللسان، بل قال هنا: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي لا بد من تحريك اللسان بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لكن لا يكون جهرًا، ولا يكون أيضًا بدون تحريك للسان، بل يكون وسطًا بين ذلك حركة خفيفة للسان بينك وبين نفسك.

﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾. ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾؛ يعني الصباح الباكر. ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾؛ هي فترة بعد العصر ما قبل غروب الشمس، وهذا هو وقت أذكار الصباح والمساء، ويأتي التأكيد عليها والتنويه بها كما سيأتي معنا في آياتٍ عديدة.

المتن:

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الجمعة، من الآية:١٠].

الشرح:

وهذه الآية فيها كما قدمت أن الطاعات الكِبار يأتي دائمًا في النصوص الحث على ختمها وتتويجها بالإكثار من ذكر الله، مثل ما مرَّ معنا في الصيام، وفي الحج، وفي الجهاد، وهُنا في الصلاة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾. وقوله هنا في تمام الآية: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾؛ فيه دلالة على أن الإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سببٌ للفلاح.

والفلاح كما قال العلماء: "أجمع كلمة قيلت في حيازة الخير في الدنيا والآخرة"، الفلاح أجمع كلمةٍ لحيازة الخير في الدنيا والآخرة، إذا قيل لك: من المُفلح؟ فالجواب: هو من حاز خيري الدنيا والآخرة، المُفلح هو من

حاز خيري الدنيا والآخرة بِمَ يُحاز؟ وبِمَ يُنال خير الدنيا والآخرة؟ أنظر من أمثال هذه الآيات. وذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من أعظم ما يُنال به الفلاح.

وقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يمشي في طرقات مكة يقول: «**قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَه تُفْلِحُوا**»، ولا إله إلا الله أعظم الذكر.

إلى هُنا انتهى المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من عرض الآيات التي في القرآن، أو عرض جُملة من الآيات في القرآن الكريم المشتملة على الحث على ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ولو تأملنا في هذه الآيات التي مضت؛ لوجدنا أنها مُتنوعة في دلالاتها على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وفضله وعظيم ثوابه عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه **[مدارج السالكين]** ذكر كلامًا جميلًا لعله سيكون مشتملًا على تلخيصٍ لما عرفناه من الآيات التي عرضها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: "الذكر ورد في القرآن على عشرة وجوه"، يعني الأمر بالذكر والحث عليه وبيان فضله، وثوابه إلى آخره يقول: ورد في القرآن على عشرة وجوه.

أُريد -أيها الإخوة- أن تكون متابعتكم معي لهذه الوجوه بمحاولة منكم تطبيقها على الآيات التي أوردها الشيخ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-، حاولوا أن تطبقوا هذه الوجوه التي يذكر ابن القيم الآن على الآيات التي أوردها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: أولًا الأمر به، **الوجه الأول:** الأمر به، مر معنا آيات كثيرة فيها ماذا؟ الأمر بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أول آية عندنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٤١]؛ **هذا النوع الأول.**

النوع الثاني: قال: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان، الآية التي قبل الأخيرة قال فيها: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٢٠٥].

النوع الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته، وهذا مرَّ معنا مثل الآية الأخيرة، قال: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الجمعة، من الآية:١٠]؛ **تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.**

قال: **الرابع**: الثناء على أهله، وهذا أيضًا مرَّ معنا في آيات عديدة فيها ثناء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات. الثناء على أهله مثل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٥] إلى أن ختم بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٣٥]؛ هذا كله ثناء من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على أهل الذكر.

الوجه الخامس: الإخبار عن خُسران من لهى عنه بغيره، ما هي الآية؟ ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [سورة المنافقون، من الآية:٩]؛ فمن لهى عن الذكر بالتجارة، بالأولاد، بالبيع، بالشراء، بالصناعة، بالأعمال.. إلى آخره؛ فهو خاسر، فيقول ابن القيم: الإخبار عن خُسران من لهى عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاءً لذكرهم له، أين الدليل؟ ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٥٢]، جعل ذكره لهم جزاءً لذكرهم له، الجزاء من جنس العمل، وقد جاء في الحديث: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**».

الوجه السابع: الإخبار بأنه أكبر من كل شيء، هذا لم يرد في الآيات التي أوردها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فما هي الآية؟ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية:٤٥]؛ يعني من كل شيء، فالإخبار بأنه أكبر من كل شيء.

الوجه الثامن: أنه جعله -يعني الذكر- خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها، خاتمة الأعمال الصالحة، هذا مر عليه معنا عدة أمثلة، مر معنا خاتمة الحج، وخاتمة الصيام -أوردت لكم الآية-، وخاتمة الصلاة، الشيخ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما أنه مفتاحها.

الوجه التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم أهل الانتفاع بآياته وأنهم أولوا الألباب، هذا في قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩٠]؛ من هُم؟ ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٩١].

العاشر وهو الأخير: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، ما معنى ذلك؟ الآن إذا نظرت للصلاة -وهي من أعظم الأعمال الصالحة-، لماذا شُرعت، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [سورة طه، من الآية:١٤]؛ اقرأ

في الحج يتكرر معك في مناسك الحج الأمر بماذا؟ بالذكر، بل صحَّ في الحديث عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**إِنَّمَا جُعِلَ رَمْيِ الجِمَارَ وَالسَّعْي بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ لإِقَامَةِ ذِكْرِ الله**»، ومرَّ معنا في الحديث: «أَنَّ أَعْظَمَ النَّاسَ أَجْرًا فِي كُلِّ طَاعَةً أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا فِيهَا.

فإذًا من فضائل الذكر في النصوص: أنه جُعل قرينًا لجميع الأعمال الصالحة وروحها، بمعنى: أن كل طاعة من صيام، من صلاة، من حج، من جِهاد.. إلى غير ذلك من الطاعات أعظم الناس أجرًا فيها أكثرهم لله ذكرًا في تلك الطاعة. فهو قرينٌ لكل الطاعات، وهو روح كل طاعةٍ وقُربة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فهذه عشرة وجوه ذكرها ابن القيم -رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى- في كتابه [**مدارج السالكين**]، بيَّن فيها الأوجه التي ورد فيها الترغيب في الذكر وبيان فضله في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

ونكتفي بهذا القدر، والله تعالى أعلم، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.